الفصل الثالث

تونس تحت الحكم العثمانى

كانت تونس الخضراء مقرا للولاة العرب فى المغرب ، كما مثلت دورا بارزا خلال حكم الأغالبة فالعبيديين فالحفصيين ٠

وبعد أن أدار الفلك دورته ، وكشر الزمن عن أنيابه تنازع تونس الفوضى ، وأصبح الضعف والتفكك السياسى إحدى سماتها البارزة خاصة بعد اعتلاء "محمد بن الحسن الحفصى" العرش فى عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م حيث خرجت مدينة القيروان والعديد من المدن من تحت سيطرته ، وفى أعقاب وفاته تنازع الإسبان والعثمانيون السيطرة عليها ، وتمكن الإسبان من الاستيلاء على بعض ثغورها ٠

وبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين كان من الضرورى أن تكون وجهة الأسطول العثمانى تونس لتكون كقاعدة عمليات إضافية للعثمانيين خاصة وأن الإمبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا كان قد تحالف مع فرسان القديس يوحنا فى مالطة وطرابلس ضد المسلمين ٠

ونتيجة لذلك رأى السلطان سليمان القانونى أنه من أجل تأمين قواعد قواته فى البحر المتوسط ، وترسيخ وجودها فى الجزائر لابد من السيطرة على تونس ، وشجعه على ذلك أن أحد المطالبين بعرش الحفصيين فى تونس قد لجأ إلى الآستانة طالبا المساندة العثمانية لاستعادة عرشه ٠ وبعد أن هيأ السلطان الأمر لذلك استدعى "خير الدين بربروسا" إليه فى إستانبول فى عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م ، وعهد إليه بإعداد العدة لفتح تونس واسترجاعها من أيدى الإسبان ، وتحويلها إلى ولاية عثمانية قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل

الخامس فى الاستيلاء عليها ٠ وفى أعقاب حصول بربا روسا على الدعم الكامل والإمدادات اللازمة من السلطان توجه بالأسطول العثمانى المؤلف من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندى إلى منطقة "بنزرت" فى غرب تونس حيث حظى هناك باستقبال طيب من الأهالى ، ومن "بنزرت" توجه الأسطول العثمانى إلى منطقة "خلق الوادى" فى عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م ودخل "خير الدين" بقواته إلى العاصمة التونسية التى تركها حاكمها "الحسن الحفصى" وفر هاربا مستنجدا بأعراب الصحراء ٠ وفى أعقاب ذلك أعلن "خير الدين" نهاية حكم الحفصيين ، كما أعلن تبعية تونس للدولة العثمانية ، ووجوب الطاعة له بحكم كونه ممثلا للسلطان العثمانى مما قلب موازين الأمور ، وزاد من حدة الصراع الحربى بين العثمانيين والإسبان الذين كانوا يدركون أهمية تونس العسكرية ، وتحكم موانيها فى المواصلات البحرية فى منطقة البحر المتوسط، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، وقربها من إيطاليا ، ومجاورتها لجزيرة مالطة ٠ ومع كل ذلك فإن الأمر لم يستقر لخير الدين تماما فسرعان ما واجه العديد من المشاكل من أهالى تونس الذين تمردوا عليه نتيجة للتنظيمات التى أدخلها فى بلادهم ٠ ومن أجل حفظ النظام والأمن وزع "خير الدين" قواته فى كافة أنحاء البلاد ٠ وبينما كان "خير الدين" يوطد سلطانه فى تونس لجأ "الحسن الحفصى" إلى "شارل الخامس" ملك إسبانيا طالبا العون ضد "خير الدين" والعثمانيين٠ وقد استجاب "شارل الخامس" لمساندة "الحسن الحفصى" ، وكلف قواته بوضع الخطط العسكرية للاستيلاء على تونس واستعادة التحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط ٠

وفى ذى القعدة ٩٤١هـ / مايو ١٥٣٥م أقلعت حملة عسكرية من برشلونة مكونة من ٤٥٠ سفينة ، ٢٦٥٠٠ رجل ، واتجهت إلى تونس حيث انضم إليها "الحسن الحفصى" بثمانية آلاف رجل وعلى الرغم من المقاومة الشديدة التى واجهتها قوات شارل فقد تمكنت من الاستيلاء على تونس ، مما اضطر "خير الدين" إلى الانسحاب إلى الجزائر ٠

وبعد أن دخل "الحسن الحفصى" مدينة تونس أباح البلاد لعمليات السلب والنهب والانتقام لمدة ثلاثة أيام ، وفى أعقاب ذلك وقع "الحسن الحفصى" مع "شارل الخامس" معاهدة تخلى خلالها عن "حلق الوادى" و"قرطاجنه" و"مدن عنابه" و"بنزرت" و"المهدية" للإسبان ، كما منحهم حق الإقامة والتجارة وممارسة شعائرهم الدينية دون أى تضييق .

وبذلك أصبحت تونس تحت السيادة الإسبانية المطلقة ، وتولى "الحسن الحفصى" حكمها باسم شارل الخامس مما كان له أثره السلبى لدى العثمانيين ومجاهدى شمال أفريقية .

وقد رد "خير الدين" على ذلك بغارة مفاجئة على "جزر البليار" واستولى منها على ستة آلاف أسير وعاد بهم إلى قاعدته فى الجزائر .

وخلال ذلك ثار أهالى تونس على بنى حفص لتواطئهم مع "الإمبراطور شارل الخامس" واندلعت عدة ثورات داخلية ضدهم اضطر بعدها "الحسن الحفصى" إلى الرحيل عن تونس طالبا المساعدة من أوربا ، وفى هذه الأثناء ظهر قائد بحرى من العثمانيين هو "درغوث باشا" واستطاع أن يتخذ من طرابلس قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الدينى البحرى فى شمال أفريقية ، واستولى على ميناء قفصة فى عام ١٥٥٦م وتوغل فى الداخل حتى وصل القيروان واحتلها ، وأقام فيها حامية فى عام ١٥٥٨م . ولكن ظل الإسبان يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم من الحفصيين .

وخلال ذلك رأى السلطان سليمان القانونى ضرورة الاستيلاء على مالطة نظراً لأهميتها فى الصراع العسكرى بين العثمانيين والإسبان حول تونس ، فأرسل أسطولا ضخما يحمل ثلاثين ألف جندى تحت قيادة "مصطفى باشا" لمحاصرة الجزيرة ، ولكنه لم يتمكن من دخولها . فبعد حصار أربعة أشهر تكبد العثمانيون خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد ، وارتدوا على أعقابهم .

واستمرت الأحوال فى تونس كما هى حتى تولى "علج علـــى" أريكـــة الحكم فى الجزائر فقاد حملة لتخليص تونس من الحكم المتعاون مع الإســبان نجح خلالها فى هزيمة القوات الحفصية ودخول تونـــس فـــى نهايـــة عـــام ٩٧٧هـــ /١٥٦٩م حيث أخذ البيعة للسلطان العثمانى ٠

ونظراً لأهمية موقع تونس عمل "علج على" على تقوية حاميتها قبـــل مغادرته لها فترك بها جيشا مكونا من خمسة آلاف رجل موزعين على عـــدة كتائب سميت بالأوجاق يحكمها جميعا قائد باسم "أوجاق باشى" كما تم تعييـــن القائد "رمضـان" حاكما عاما لتونس ، وبعدها غادر "علج على" تونس متوجها إلى الجزائر فى رمضان ٩٧٩هـــ / ١٥٧٠م ٠

وبعد معركة ليبانتو البحرية ٩٧٩هـــ/١٥٧١م التى هزم فيها العثمانيون ودمر أسطولهم سارعت إسبانيا للاستيلاء على تونس ونجحت فى ذلك خاصة وأن حاميتها كانت قليلة العدد بالنسبة للقوات الإسبانية ، كما استباح الإســبان "جامع الزيتونة" ونهبوا خزائن الكتب الموجودة به ٠ ونتيجة لذلـــك أرســـلت الآستانة أسطولا مكونا من ثلاثمائة مركب مشحونه بالجند ، لاستعادة تونـــس وإحياء روح الجهاد بين أهلها ٠

وقد تمكن "سنان باشا" والقبطان "علج على" من استردادها فـــى عـــام ١٥٧٤م ، وإبادة الحامية الإسبانية هناك ، وإنهاء حكم الحفصيين المتعـــاونين معهم ٠ وبذلك استطاعت الدولة العثمانية تحريـــر تونـــس مـــن الإســـبان ، وإعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية ٠

وقبل أن يغادر "سنان باشا" تونس عمل على تنظيم شئونها ؛ وكان مـــن أهم تنظيماته توفير قاعدة عسكرية تتمركز بها فترك أربعـــة آلاف جنـــدى إنكشارى ممن كانوا برفقته لحماية هذه البلاد ، كما كون فيـــها إدارة كـــانت فرقة الإنكشارية مدار قوتها ، وأعضاؤها من المجلس الذى يرأســـه الباشـــا ممثل الدولة العثمانية يساعده ديوان استشارى مكون مـــن كبـــار الضبـــاط

والمسئولين ، وعلى رأس كل هؤلاء الباشا الذى كان يطلق عليه الأغا أو الباى وبعد أن نظم "سنان باشا" أمور تونس غادرها إلى استنبول ومنذ ذلك التاريخ تتابع على حكم تونس عدد كبير من البايات كان أشهرهم "عثمان باى" الذى حاول النهوض بالبلاد و"يوسف باى" الذى نهض بالنواحى التعليمية .

وظلت تونس يحكمها الولاة حكما مباشرا ، ويتوارثها أبناؤهم أحيانا وخلال الربع الأخير من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر شهدت ولاية تونس اضطرابات ناتجه عن التنافس بين القادة على الاستئثار بالسلطة، وزاد من هذه الاضطرابات قيام حرب بين ولايتى تونس والجزائر ثم التنازع على الحكم فى تونس واستنجاد أفراد الأسرة المرادية بالجزائريين .

وفى وسط هذه الاضطرابات تمكن "حسين بن على" أحد رؤساء الجند من الاستيلاء على الحكم فى عام ١٧٠٥م وتأسيس الأسرة الحسينية التى حظيت بترحيب الأهالى وقواد الجند . وقد استطاع "حسين بن على" أن يعيد هيبة الحكومة، ويقضى على نفوذ العصبيات المسلحة ، وأنشأ جيشا قويا .

وتصرف البايات الحسينيون كمستقلين فى شئونهم عن الدولة العثمانية، فعقدوا المعاهدات وأعلنوا الحرب دون الحصول على موافقة السلطان ، واكتفى السلطان بالولاء الإسمى وبالدعاء له فى المساجد خلال خطبة الجمعة وضرب السكة باسمه .

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأت الدول الأوربية تعقد مع تونس علاقات تجارية وسياسية ، وأخذ البايات يسيرون فى طريق الإصلاح .

ونتيجة لبذخ بعض البايات وانغماسهم فى الترف ومحاولة ظهورهم بمظهر الحكام العصريين واجهت تونس مصاعب مالية ، وتراكمت الديون عليها . وعلى سبيل المثال نذكر أنه فى عصر "أحمد باى" ١٨٣٧-١٨٥٥

أنفق الكثير من الأموال فى بعض المشروعات العمرانية والإصلاحات ، وفى عمليات البذخ والترف واقتناء التحف مما أدى فى نهاية الأمر إلى التوسع فى الاستدانة ، ووقوع تونس فريسة فى أيدى الدول الأوربية واقحام الأجانب فى شئون البلاد الداخلية بحجة القيام بالإصلاحات التى أرادها الباى ، وإجبارها على إصدار ما يسمى "بعهد الأمان" الذى أعطت معظم نصوصه مزايا عديدة للأجانب منها حق العمل والملكية فى تونس . حقيقة أن هذا العهد شمل فى نصوصه العديد من المنافع ، ولكن ضرره على التونسيين كان أكثر من نفعه .

وبعد أن قررت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ازداد عزمها على احتلال تونس رغبة منها فى منع قيام نظام فى تونس يهدد إحتلالها للجزائر . وقد شجعها على ذلك تأييد كل من ألمانيا وبريطانيا لها . فقد رغب المستشار الألمانى "بسمارك" فى إبعاد فرنسا عن التفكير فى هزيمتها فى الحرب السبعينية وصرف أنظار الفرنسيين عن الألزاس واللورين ، وعن فكرة الانتقام لهزيمتهم بتأييد جهود فرنسا الاستعمارية خارج أوربا .

أما عن إيطاليا فإنها اعترضت على تغلغل النفوذ الفرنسى فى تونس وقاومته، وبدأت حملة دعاية قوية ضد فرنسا خاصة وأن تونس كانت محط أنظار الإيطاليين خاصة وأن هناك معاهدة بين إيطاليا والباى عقدت فى عام ١٨٦٨ كان من أهم بنودها صون مصالح الإيطاليين فى تونس والاحتفاظ بجنسيتهم هناك يضاف إلى ذلك أن المسافة بين صقلية الإيطالية وتونس لا تزيد على سبعين ميلا .

ولما بدا لفرنسا ضرورة الإسراع لاحتلال تونس بحجة أنها إمتداد طبيعى للجزائر ، اتخذت من عبور القبائل التونسية لحدود الجزائر ذريعة لضم تونس إليها . فأرسلت قواتها فى مايو ١٨٨١ إلى قرب العاصمة التونسية ، وأعلنت أن غرضها هو إقرار النظام ، ولكنها ما كادت تصل إلى

العاصمة حتى أجبرت الباى على عقد "معاهدة باردو" فى ١٢ مـــايو ١٨٨١ والتى أعلن الفرنسيون فى أعقابها الحماية على تونس بحجة المحافظة علـــى الأمن ورعاية حسن الجوار ٠ وإلى جانب ذلك فقد كبلـــت فرنســا تونـــس بالأغلال وأصبح المقيم الفرنسى فى تونس هو صاحب الكلمة العليا ، وتولت فرنسا تمثيل تونس ، ورعاية مصالحها فى الخارج ٠

وقد شملت الحماية الفرنسية جميع المرافـــق فـــى تونـــس ، فانتشـــر الموظفون الفرنسيون فى المراكز الحكومية بتونس كما تحولت الكثـــير مـــن الأراضى الزراعية إلى إقطاعات تمنح للمستوطنين الفرنسيين ، وإلى جـــانب ذلك قام الفرنسيون بتجنيد المواطنين التونسيين وإعطائهم الجنسية الفرنسية ، كما حاولوا قطع صلاتهم الثقافية بالعالم العربى ، وبحضارتـــهم الإســـلامية وذلك بتأسيس نظام تعليمى يقتلع الشبان من جذورهم الثقافية ٠ ونتيجة لذلـك بدأت الحركة الوطنية فى تونس فى شكل حركة إسلامية ، وكانت "مدرســـة الزيتونة" معقلا لمقاومة السياسة الفرنسية ، كما بقى مسجدها حارسا للـــتراث العربى الإسلامى بالإضافة إلى أنه ظل مركزا ثقافيا ودينيا ٠

وظلت فكرة تقوية الروابط مع الجامعة الإسلامية التى كـــان يرددهـــا السلطان العثمانى "عبد الحميد" ملتقى أفئدة التونسيين ، ثم تبلورت الحركـــة الوطنية بعد ذلك حتى اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن تونـــس والاعـــتراف باستقلالها فى ١٧ مايو ١٩٥٦ ٠

نظام الحكم العثمانى فى تونس :

تمت أول محاولة لتنظيم إدارة تونس على يد "سنان باشا" عقب فتحـــها عام ١٥٧٤م ، وكان قاعدة هذه التنظيمات هو الجيش الإنكشارى ٠ فقد ترك سنان باشا أربعة آلاف جندى إنكشارى فى تونس لحمايتها ، وأسند حكمـــها إلى باشا تابع للجزائر بلقب أمير الأمراء ٠ وكان "حيدر باشـــا" أول أمـــير لأمراء تونس وكان يسانده ديوان للمشورة ٠ كما اســـتحدث "ســـنان باشـــا"

منصب أمير اللواء بهدف حفظ الأمن ، وعين قاضيا للأحكام الشرعية ، كما عين جابيا يلقب بالباى ٠

وإلى جانب ذلك فقد قسمت تونس إلى ولايات ومناطق عسكرية عين على رأس كل منها ولاة عسكريون ٠ ولكن هذا النظام لم يستمر طويلا فسرعان ما سيطر الجند على الأمور ، وقاموا بذبح أعضاء الديوان وإنهاء حكم أمير الأمراء ، واستحداث نظام الدايات الذى استمر قائما فى تونس حتى عام ١٦٤٠م ، وبعدها استطاع أحد حكام الأقاليم وهو "مراد بك" أن يخضع حكومة الداى لنفوذه ويقوم بتأسيس "الأسرة المرادية" وأن يحصل على لقب باشا من الباب العالى ٠ وقد ظلت هذه الأسرة تحكم تونس حتى عام ١٧٠٢ حتى تمكن "حسين على" أحد ضباط الإنكشارية من القضاء على هذه الأسرة ، وتأسيس "الأسرة الحسينية" التى بدأ حكمها فى عام ١٧٠٥ واستمر حتى عاصر مرحلة الاحتلال الفرنسى لتونس ، ومما يذكر لهذه الأسرة أنها حافظت على الطابع العثمانى فى الحكم ، من حيث الاعتماد على طبقة الإنكشارية ، واتخاذ المذهب الحنفى مذهبا رسميا بدلا من النظام المالكى الذى يتبعه معظم الأهالى ٠

وعن موارد الدخل فى تونس وطرق الصرف منها ، فلم تفرض الدولة العثمانية على تونس أموالا تدفع لخزينتها كما كان يحدث مع باقى الولايات ، بل كان كل ما يفرض عليها هو إرسال كمية من الزيت بقصد إنارة المسجد الكبير فى الجزائر ٠

وكانت الضرائب التى تجبى من الأهالى تستخدم فى الصرف على مصالح الولاية ، وعلى أوجه الإنشاء والتعمير والرواتب والمخصصات ، وتجهيز الحملات٠

مظاهر الحياة الاقتصادية فى تونس خلال الحكم العثمانى :

تمثلت هذه الحياة فيما يقوم به السكان من أعمال الزراعة والصناعة والتجارة وبصورة عامة يمكن القول أن تونس كانت تعتمد على الزراعة أكثر من غيرها من الولايات الأخرى خاصة وأن طبيعتها المناخية وتربتها الصالحة للزراعة قد ساعدت على ذلك . وقد ارتبطت الزراعة فى تونس بطبيعة ملكية الأرض وتقسيمها فكان هناك الأراضى الخصبة المحيطة بالمدن ، وكان هناك الأراضى التى تصادر من القبائل وتمنح لكبار الموظفين كما كان هناك الأراضى التابعة لقبائل معينة تمارس فيها نشاطها الزراعى والرعوى .

وكانت الحبوب والخضر والفواكة أهم منتجات تونس وقد ساهمت هذه المحاصيل بنصيب كبير فى حركة التجارة الداخلية والخارجية . فقد نشطت حركة التجارة بين الولايات المغربية وبعضها البعض .

وبالنسبة للصناعة فقد تميزت تونس بصناعة المنسوجات الحريرية والنقش على الرخام والجبس .

مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى تونس خلال الحكم العثمانى :

شهدت تونس خلال العصر العثمانى نفس المظاهر التعليمية والثقافية التى كانت موجودة قبله ، فقد تم الاهتمام بعلوم القرآن والفقه والسنه النبوية والأدب والنحو والصرف وكان لجامع الزيتونه اليد الطولى فى ذلك . كما شهدت هذه الفترة انتقال العلماء من منطقة لأخرى .

وكان نظام الكتاتيب النظام السائد خلال هذه الفترة وكان التلاميذ يتلقون فيه العلوم الدينية وأصول النحو واللغة العربية .

وكان يطلق على الكتاب فى المناطق الحضرية كلمة مسيد " وهى تحريف لكلمة مسجد ، وكان يوجد ذلك "المسيد" قرب الجامع وأحيانا يكون

جزءا منه . ويوجد كل من المسجد والمسيد فى كل حى عند نهاية الشـــارع وتقاطع الطرق ، ويكون على مكان مرتفع نظرا لرفعه شأن القـــرآن الـــذى يتعلمه التلاميذ فيه .

وإلى جانب ذلك فقد أسس الحفصيون فى تونس العديد مـــن المـــدارس التى ساعدت على إحياء المذهب المالكى .

ومن أبرز علماء تونس خلال هذه الفترة "الشيخ محمد بن أبى الفضـــل خروف الأنصارى التونسى" (ت٩٦٦هـــ/١٥٥٨م) ومحمد بن سلامة خطيب جامع الزيتونة فى تونس (ت٩٩٣هـــ/١٥٨٥م) .